الفصل السادس

عم يتساءلون

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

كان بعض الفقهاء يرفض هذا السؤال : أرأيت لو كان كذا ؟

لماذا ؟

لأن السؤال هنا ترف عقلى : من حيث إن المسؤول عنه لم يحدث بعد . .

فلنشغل أنفسنا بعالم الشهادة : بالواقع . . لا بالمتوقع .

لقد كان سؤال المؤمنين عن المفيد :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

أما اليهود :

فكانوا يسألون تعنتا . . .

obeikandl.com

بعض السائلين

والمفروض فى السائل أن يكون مسترشدا :

ينشر الحق . . لمعرفته .

ويطلب الخير . . . للعمل به .

فإن لم يكن كذلك . . كان معاندا . .

منهج القرآن :

لم يقف القرآن الكريم فى مواجهة المعاندين . . يتلقى فقط شبهاتهم . . وإلا كانت آياته مجرد رد فعل . .

ولكنه يطرح من الأدلة والحقائق ما يكفى . . كاشفا هذا العناد حين لا ينتظر من المعاند ردا . .

فى مثل قوله تعالى :

﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] ؟

ومن دروس الدعو هنا :

ألا يكتفى الداعية . بمجرد الدفاع . .

لأن الدفاع يشكل راحة نفسية . . لأنه إعفاء للنفس من مسؤولية تحقيق الواجب .

إن عناد الكافر . . من نوع عناد الطفل الذى يريد بالعناد إثبات ذاته . .

والطريقة المثلى فى مواجهته هى :

التعامل معه بما يحبط هذا العناد .

ولكن . . كيف ؟؟

أيها الداعية :

كن سهل العبارة . . بلا تعمق . . مع من تعرف أنه يقصد الحق

وقد يكون سائلك ضعيفا . . ولكنه قد يضايقك بما يغلبك .

فكن كما يلى :

ابدأ بأقوى ما فى المسألة .. لتحقق ما يلى :

تُذهب بها . . ما هو أضعف . .

لأنك لو بدأت بالضعيف . . احتجْتَ إلى القوى . .

فذهب عنك رونق الحق .

ثم إنك لو قدّمت الضعيف . . استرذل الحاضرون كلامك . . فانعكس عليك، فضعف خاطرك عن الاسترسال .

وأخيرا :

إذا بدأت الخصم بالأقوى . . هابك :

فتأثر وضعف .

سؤال :

كلما باشرت الدعوة منفردا أحسست بضآلة جهدى. شاعرا بحاجتى إلى غيرى ليكون معى. . فهل يعد هذا نقصا فى دينى ؟

والجواب :

حسم القرآن الكريم هذه القضية بقوله عز وجل على لسان موسى عليه السلام :

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٦]

وفى موطن آخر يقول :

قال : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ..... ﴾ [القصص: ٣٤ ، ٣٥]

فقد أحس موسى عليه السلام ـ وهو رسول ومن أولى العزم ـ أحس بحاجته إلى

عون أخيه ليدعوا معا. فأعطاه الله تعالى ما أراد :

فالتعـاون على الدعوة تكامل يجمع الله به كل خصائص الدعـاة الذين يتعاونون بها على البر والتقوى .

من أين ينطلق الداعية ؟؟

الجواب :

يبدأ أولا بإصلاح نفسه :

وبهذا الصلاح ينبت له جناحان يطير بهما، ليحط فى الجنة . . وفى «طوبى».

ولماذا كان جزاؤه «طوبى» ؟:

١ ـ له هدف يتحرك فى اتجاهه . .

٢ ـ يقيم فى كيانه محكمة : تراقب . . بل تحاسب . . بل تعاقب !

٣ ـ يحمى إخوانه من الفضيحة . . ليتوبوا .

٤ ـ فهو إنذار مبكر :

كهذا الذى كان يعصى . . ثم يعود إلى البيت :

فتنطحه بقرته . وتعصاه زوجته .

٥ ـ يلاحق العيوب قبل أن تتراكم وتستعصى على العلاج .

ومما ينبغى تعليمه :

[ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول :

لا أدرى . .

فإن العالم إذا أخطأ «لا أدرى» أصيبت مقاتله !] «مالك» .

ثم :

فلنعلم المدعو أولا لأن جهله ينهض عذرا له كما قلنا آنفا :

يقول عز وجل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤]

يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤]

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

ما معنى :

إذا ضيعت الأمانه . . فانتظر الساعة" لماذا ؟

لأن ضياع الأمانة معناه :

وضع الرجل غير المناسب . . فى الموضع الذى لم يؤهل له . .

ووضع الرجل المناسب . . فى المكان غير المناسب . .

بمعنى عدم احترام النسب .

وإذا حدث ذلك : فكيف يتسق البناء ليطاول السماء . . متحديا الفناء ؟!!

إن اختلال النسب هكذا مؤذن بسقوط البناء : بقيام الساعة فى زمان لم يعد الأحياء فيه جديرين بالحياة !

ما المقصود بقوله ﷺ :

« أحبب حبيبك هونا ما . . وأبغض بغيضك هونا ما » . .

لماذا ؟

١ ـ عسى أن يكون بغيضك يوما . . فينشر أسرارك .

٢ ـ حبك شخصا إلى درجة التقديس . . سيجعل هفوته الصغيرة ـ على مستوى التقديس ـ سيجعلها كبيرة .

٣ ـ إذن . . فالحب على مستوى التقديس . . يمكن أن يذوب . . لسبب تافه .

والقاعدة :

لا يكن حبك كلفا

ولا بغضك تلفا

وخير الأمور الوسط .

وصدق القائل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وهو معنى الاقتصاد فى « العواطف » حذر العواقب . .

وهو ما أشار إليه «أبو الأسود الدؤلى» :

بقوله :

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا فإنك لاتدرى متى أنت نازع

وأبغض ـ إذا أبغضت غير مباين فإنك لا تدرى متى أنت راجع

أشعة على الطريق :

دروس مستفادة للدعاة من قصة أصحاب الكهف .

١ ـ العناية بالشباب .

٢ ـ قوة إيمان الداعية بالله .

٣ ـ الثبات على الحق .

٤ ـ أهمية الآيات الكونية .

٥ ـ ضرورة البعد عن المراء .

ماذا عن مقومات الحياة الروحية ؟

١ ـ الإيمان

٢ ـ التوحيد

obeikandl.com

٣ ـ الإيمان باليوم الآخر

خصائصها :

١ ـ الاستمرار .

٢ ـ الإحسان إلى الغير .

٣ ـ التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة .

ومنه دعاؤه ﷺ :

« اللهم أصلح لى دنياى التى فيها معاشى .

وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى» .

سؤال :

صافحت «يهودية» فماذا ترى ؟

وقلت : ما أراه هو ما يراه الشرع الحكيم :

ومن حكمة هذا الشرع أن هذه اليهودية يجوز أن تكون لأخيك زوجة ، بمعنى :

أ ـ يحبها . . وتحبه . . ما دامت زوجه . . بل يوادها . .

ب ـ وأولاده منها . . أخوالهم من اليهود . .

وإذن فالحساسية الناشئة عن هذه المصافحة خطأ منك. وقد سبقك الإسلام إلى إقرار ما هو أهم منها . . مما يمكن أن يكون لونا من الوفاق .

وقد تتسع به رفعة الإسلام .

سؤال :

أنا أغتاب واحدا من أهل الكتاب . . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

أولا :

لا يجوز شتم المخالف فى الدين . . ولو كان وثنيا . .

وإذا كان ولابد فالتعميم هو سبيلنا : مثل :

من فعل كذا فهو كذا . . دون أن نحدده بالاسم .

وثانيا : السنة تقول :

إن الرسول ﷺ . لم يكن فاحشا . ولا متفحشا :

بمعنى أن لسانه الشريف أنظف من أن يلوث بالكلمة النابية . .

وحتى لو تكلف مالها وعته نفسه . .

وإذن . . فالكلمة الطيبة أجدى . . وأقطع من البرهان . .

وإذا كانت وظيفة المسلم أن يحبب الآخرين فى الإسلام . . فالغيبة ليست السبيل إلى تحقيق ذلك . . وإنما : الكلم الطيب والعمل الصالح . .

وثالثا :

يجوز أن يكون هذا الإنسان آخذا طريقة ليكون مثلك على الهدى . . وأنت مطالب بأن تكون عونا له على ذلك . . بدل أن تكون مع الشيطان عليه .

ما معنى قوله تعالى :

أ ـ ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ب ـ ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ على الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤].

والجواب : أن لين الجانب وخفض الجناح أليق فى التعامل مع المسلمين . . أما غيرهم فنحن مطالبون بفرض احترامنا عليهم . . بلا ظلم لهم .

والتعبير بعلى ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعطى معنى «الشفقة» :

فالعزة هنا ليست استعلاء محضا . . وإنما هى الشفقة على من يستأهلونها لأنهم :

يجاهدون فى سبيل الله . .

ما معنى قوله ﷺ :

« إن الله لا يمل حتى تملوا » .

المعنى : إنكم تعملون . . فيثيبكم الله تعالى . .

وما دمتم تعملون . . فالثواب موصول مضمون . .

ولا ينقطع هذا الثواب إلا إذا قطعتم العمل وإذن :

فاختاروا من الأعمال ما تداومون عليه . ليظل نهر الثواب جاريا إليكم .

عن قيمة العفة :

كان ﷺ إذا قلق بالليل . . خرجت به «حليمة» من الخيمة فإذا رأى النجوم . . نام !

وكان ﷺ . . وهو وليد . . كان يبكى فقط . .

ومتى ؟؟ إذا تعرى ! . . .

وتلك هى قيمة العفة : أمارة حضارتنا . .

أما اليوم فلم يعد للعفة مكان . . ولا مكانه :

فقد حكمت محكمة فى باريس للممثلة «بريجيت باردو» ب ٦٠٠٠ دولار : على إحدى المجلات هناك :

لماذا ؟

لأن المجلة أخذتها فى صورة تسىء إلى كرامتها :

صورتها وهى عارية الجسد . . ولا تثريب على المجلة أن عرضت لحمها الطرى على الهر الجائع . . فهناك أناس : لا يردون يد لامس ؟!

وإنما صدر الحكم لأن المجلة أبرزت جسدها وقد مزقته السكاكين أى فى صورة مشوهة ؟!

بمعنى أن الصورة لو كانت عارية . . لكن كما هى . . لربما كانت دفعت هى الستة آلاف دولار . . وقل معى : صدق الرافعى الذى قال : لو كنت قاضيا وعرضت على قضية تحرش فنى بفتاة عارية . . لجلدتها هى . . لأنها كشفت لحمها

الطرى للهر الجائع !!

هكذا يتعامل الزملاء :

قال إبراهيم النخعى . لسليمان الأعمش . . . وقد أراد أن يماشيه :

إن الناس إذا رأونا معا قالوا :

أعور وأعمش . .

فقال سليمان :

ما عليك أن يأثموا . . ونؤجر !!

فقال له :

ما عليك أن يسلموا . . ونسلم ؟!

قال الصحابى لزميله :

خذ جملى وجاهد . . على أن تتحمل أوزارى .

ومع أن الزميل مؤمن بأنه «لا تزر وازرة وزر أخرى» .

إلا أنه قبل القرض . . وأخذ الجمل . . لأن همته المتعلقة بالجنة أنسته هذه القاعدة . .

وهكذا كان الزملاء يتعاملون . .

وأين من هذا الأفق العالى من يتشاجرون اليوم بين الصحيح . . والأصح !

المؤمن . . والمنافق

شأن المؤمن : استصغار طاعته . واستعظام ذنبه . .

يفعل هذا مراغمة للشيطان الذى استحوذ على الكافر والمنافق .

أما المنافق :

فهو من مدرسة :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة :١١، ١٢]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :١٣] .

إنهم واثقون من أنفسهم . .

والحال إنهم :

أ ـ فقدوا الشعور [لا يشعرون]

ب ـ التفكير [لا يعلمون]

وماذا يبقى من وجود الإنسان بعد فقده الحس والعقل ؟ لم يبق إلا صورة اللحم والدم والعظم !!

ويبقى المؤمن هو الأقوى :

إن الصحراء للأسد ..

الأسد الذى يهجم من الأمام متحديا .

وليست الصحراء للعقرب ..

العقرب : التى تدب خفية وسط الظلام . .

وهكذا الرجل الحر :

إنه يعمل فى نقطة الضوء . . وليس هو ذلك المنافق الذى قد ترى فى مظهره معنى «الحرباء» فإذا خبرته . . كان مظهره أفضل من مخبره !!

ورحم الله الشيخ على الطنطاوى حيث قال : عرفت كثيرا من الذين قاموا يحاربون الاستعمار والمستعمرين ولكنهم يسلكون طريقهم ، ويفكرون تفكيرهم، ويعتادون عاداتهم، ولا يكاد جلهم يتمسك بما يدعو إليه الإسلام، فخبروني : كيف يحارب الاستعمار من الاستعمار في رأسه، فأفكاره أفكار المستعمرين ، والاستعمار في قلبه فهواه تبع لهوى المستعمرين، والاستعمار في بيته وفي أسرته فسلوكه في

البيت سلوك المستعمرين ؟

إذا كنت لا أستطيع أن أتحرر أنا منهم، فكيف أحرر بلادي من الاستعمار ؟

الذاكرة الواعية :

كان الشيخ حسن البنا يلاقيك مرة واحدة . . وبعد عشر سنوات يناديك باسمك على تقادم العهد :

وهكذا يعلن الدرس المفيد عن نفسه وهو :

كيف تكون الذاكرة الواعية خاصية الداعية . .

إنها ذاكرة مغناطيسية :

بحيث يراك مرة واحدة . .

ثم . . وبعد تقادم العهد . . وتطاول الزمان . .

يلقاك . . فإذا به يناديك باسمك . .

بل وعملك أيضا !!

وتصور عندئذ كيف يستقطب الداعية بهذه الموهبة الفذة . . ناسا ما كان يظن أحد أن يعودوا إلى الله يوما .

هل هناك غزو فكرى ؟

اختلفت الإجابات :

قال قوم : لا . .

ذلك بأن الفكر الوافد غير قادر على اختراق العقل والوجدان المسلم . .

والموجود فعلا هو :

غزو عسكرى

ولكى نكون أقوياء : فلنقدم أحسن ما عندنا .

لنطرد به سيئ غيرنا .

وأجاب قوم :

إن هناك جراثيم وافدة علينا من الخارج ، وهذه الجـراثيم . . جعلت فكرنا جثة هامدة !

وهذا يأس من روح الله .

وقالوا :

ينفى بعض الباحثين أن يكون هناك ما يسمى بالغزو الفكرى قائلا :

مرحبا به . . ونحن له !!

ثم ينكر على من يقف ضد الفن . .

مستشهدا برأى «إقبال» والذى رحب بالفن لكنه اشترط أن يكون قويا . .

ونقول للمنكر :

معنى الفن فى ذهنك . . مختلف عن معناه فى ذهن «إقبال» .

لأن اشتـراط القوة يعنى رفض «الفن» العابث وإلا فـأية قوة فى «الرقص» الذى تجرأ بعضهم فقال : إنه عبادة ؟!!

والواقع الصارم ناطق بأن هناك غزوا فكريا وبخاصة من اليهود :

الذين جادلوا الرسول

وألّبوا عليه العرب .

ثم أثاروا الفرقة بين القبائل .

وقد أجادوا اللغة العربية . . وأهّلهم ذلك للعمل فى بلاط الخلفاء . .

ومن هناك سرى فكرهم سُما بطيئا فى جسد الأمة . .

وساعد على ذلك . .

سماحة الإسلام

وشهد شاهد . . من بنى . .

قال أبا إيبان . .

١ ـ [نحن حقا ندين بكل شيء في العصور الوسطى إلى ما تلقيناه عن العرب].

٢ ـ اعترفوا بخصوبة اللغة العربية وتطورها . . بخلاف العبرية المحدودة الملتزمة فقط بالتوراة وقالوا : نستطيع التعبير عن كل أمانينا بالعربية دون العبرية .

ولذلك ألف اليهود مقامات يعارض بها مقامات الحريرى .

[وإن كان بعضهم ينكر ذلك اليوم نفاقاً] .

من قذائف الحق :

يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء :١٦ ـ ١٨]

يقول علماؤنا ما معناه :

١ ـ شأن الخلق هو :

الترف . . والنفى فى لذاذات الدنيا .

وهكذا المخلوق :

ولكن الخالق سبحانه وتعالى :

لا يخلق إلا لفوائد : دينيه ودنيوية .

ولا يريد الله سبحانه . .

ولو فرض هذا الخلق هو ما يشاء . . لاتبعاً لمزاجكم . .

ومما شاءه تعالى :

أن يغلب اللعب . . بالجد .

والباطل . . بالحق .

الحق : الذى لا يصيب الباطل فى يده أو فى قدمه . .

وإنما . . . يصيبه فى دماغه . . فإذا هو لا شىء !

وعلى الداعية المسلم أن يدرك هذا :

وأنه بالحق . . فى الموقف الأفضل .

وإذا كان لخصومه إعلام يشوش عليه . . فليعلم أنهم يصفون :

يصفون . . ولا يقولون . .

والمستقبل فى النهاية لك !

إنك وأنت صغير . . تحكم على الناس بهذا المقياس :

هل هم أقرباء .. أم غرباء ؟

ثم تترقى من بعد ليكون الحكم بناء على الموقف الأخلاقى :

هذا الرجل طيب . . أم شرير ؟!

فأنت مع الخيّر وضد الشرير .

ثم تجىء المرتبة الأعلى :

فلا خيّر . . ولا شرير . .

وإنما : أحب هذا الرجل . . لأنه إنسان تم تعامله على هذا الأساس .

وانطلاقا من هذا الأساس الرحب : فإنه لا شماتة فى أحد :

فالعقوبة للعبرة . . وليست للتشفى يقول تعالى : ﴿ **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ [يونس : ٩٢]

والمطلوب فقط : أن نحمد الله عز وجل على هلاك الظالمين ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٤٥]

من تجاربى :

ذهب الدكتور «محمد بشر» إلى قريتى مدعوا إلى الحضور كشاهد على عقد قران

هناك . .

ودخل القرية تحت أقواس النصر . . تحوطه قلوب المحبين على قدر ماله فيها من مقدمتهم .

وتفقد الرجل المدعوين . . فلم يجدنى بين الحاضرين . . وكان الظن أن أكون فى تقدمتهم . .

ولما سأل عنى متعجبا . . صدرت الأوامر إلى فتى ليتصل بى هاتفيا يدعونى إلى «ضرورة» الحضور . .

وتبعه الدكتور بشر . . حتى يطمئن على حضورى .

واستقبلت صوت من يقول لى .

أنت مدعو إلى عقد قران فلان عصر اليوم .. ومعك على الخط الدكتور محمد بشر .. والذى قلت له :

لن أحضر . . فقد دعى غيرى منذ أسبوع ولولاك . . لم أدع . .

قال : لقد تعجبت من غيابك ولما سألتهم قالوا : إن القرضاوى فى الطريق . .

وواضح أن هذا دعاء . . والقرضاوى لن يحضر !!

وقلت له : هاهم أولاء رجالك ـ الذين ربيتهم ـ يشددون الحصار على . . لتكون كلمة الحفل لفكر معين . . ومفكر معين قد يكون تحت سن العشرين ؟!!

وسوف يكون لى معك لقاء . . حتى أوافيك بحقيقة الموقف . . وخطورة هذا الاتجاه .

وحتى الآن لم ألتق به !!

فلقد حيل بينى وبين من أحب . . طبق منهج خاطئ هو :

أن من ليس معنا . . فهو علينا !!

والحق :

أننى معهم فيما وافق السنة وعليهم . . فيما خالفوه فيها . .

ومما خالفوا فيه :

الاقتصار على فكر معين . . فى زمان تطور فيه الأمم أسلحتها . . بينما يظل الدعاة «محلك سر» يؤمنون بناس . . ويرفضون ناس . . لمجرد أنهم لا يأتمرون بأمرهم ليفعلون ذلك ولو اضطرهم ذلك إلى التحايل . . والمناورة .

ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به . . لكان أقوم قيلا وأهدى سبيلا .

وما يزال الجمود مستمرا :

وهى قصة تلميذى الذى جلس بين يدى مئات الساعات .

فلما أراد عقد قرانه . . ذهب بنفسه إلى زميلى الذى تتلمذ عليه وقبل اليوم المحدد بأيام . .

لكنه ـ بالنسبة لى ـ أرسل إلى أخاه . . وأرسله متعمدا فى وقت كان القرآن يتلى بين يدى صلاة الجمعة . . طبق نفس خطة التحايل . .

لأن المفروض فى هذا الوقت أن يكون المدعو فى المسجد ينتظر الصلاة !!

ويعنى ذلك فزع أخيه الذى رآنى . . وكان الظن ألا يرانى !!

والحادثتان مقترنان بثالثة الأثافى : فقد لقيته يطوف حول الكعبة المشرفة وأسكت بيده ضيفا عزيزا هو وضيوفه . . وشربنا ماء زمزم جميعا . .

وكان الظن أن تنقشع سحابة صيف حاول المغرضون أن يجعلوها فى سماء حياة ناس . . تجرى فى عروقهم دماء واحدة !!

وعلى نفس الخط سار هذا الفتى الذى دعا غيرى . . ولم يدعنى . . حتى إنه فى ذهابه وإيابه . . كان يمر أمام عتبة دارى . . .

وضربت ضربتى حين حضرت بلا دعوى . . لأكتشف سر هذه المواقف جميعا . .

فهؤلاء الشباب لهم قلوب . . ولهم مشاعر تهفو . . ولا خصومة بينى وبينهم . .

ولكن القضية هى : إبعادى عن ساحة الحديث . . خوفا على أفكار الشباب أن

تهتز إذا حدثتهم !!

وقد صرح بذلك واحد من شباب القرية الذى قال لى :

نشرح كتبك للشباب . .

لكن لا ندعوك . . خوفا من تعليقاتك ؟!

ولما قلت له :

أهل مكة أدرى بشعابها . .

وسكت الفتى . .

لكن رنين الهاتف . . شدنى إليه

فإذا مكالمة من . . أبو ظبى »

تدعونى إلى التعاون مع إخوة لى من الدعاة . . لنكون وعاظا على مدى شهر رمضان المبارك .

وقلت :

سبحان الله . . .

إنه الرد الإلهى على قوم غافلين :

غافلين عن تدبير الله تعالى . .

والذى يغلق باب . . . ليفتح أبوابا . .

والسؤال الآن :

هل هؤلاء الشباب سعداء بإسلامهم ؟

إنهم مساكين . . ممزقون . . حائرون :

بين داع إلى الله لم يسئ إليهم .

بل أحسن إليهم ويحسن .

obeikandl.com

وبين أوامر مشددة تحول بينهم وبين ما يشتهون ؟!!

وأسعد من هذا الفتى

أخوه الفلاح . . الذى يشق الأرض بفأسه . . يبلل وجـه الأرض بحبات العرق يمسح بها ذنوبا لا يكفرها إلا الهم فى طلب لقمة العيش!!

ولكن تدبير الله تعالى فـوق كل تدبير وكان لابد أن يجبر الله خـاطر عبد أرادوا كسر خاطره !!

إن الحياة جميلة . . وأجمل منها من يعمل فيها :

الجمل : أجمل من الصحراء .

والحوت : أجمل من البحر .

والأسد : أجمل من الغابة .

والطائر : أجمل من الروض

والسعادة بالجمال أكمل منها بالمال :

لأن المال لكم . . .

أما الجمال : فهو للجميع .

من هدى السنة المطهرة :

السنة المطهرة سفينة نوح :

فمن ركبها . . فقد نجا . .

ومن تركها . . غرق !

ونحن الآن مدعوون إلى ركوب سفينة النجاة . .

النجاة مما نعانيه من تمزق . . وبخاصة فى مجال الدعوة .

ونحن واجدون فيها إن شاء الله من المعالم ما يصل بنا إلى شاطئ النجاة بسلام:

خطته ﷺ فى الدعوة :

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

يفهم من الآية الكريمة ما يلى :

١ ـ تكليف النبى ﷺ هو فى نفس الوقت تكليف لأمته .

٢ ـ وهذا شرف ينبغى أن يكافأ بما يستأهله من جهاد موصول .

٣ ـ إذا كانت الهداية فى اللغة «الدلالة برفق» فإن البصيرة النافذة الكاشفة سبيل هذه الهداية .

وهى تقتضى :

أن يكون الداعية بصيرا بطبائع النفوس وتقاليد المجتمع . . ليتمكن من قيادته إلى التى هى أقوم .

٤ ـ بل عليه أن يكون من الوعى فى قمته . كما يفيد حرف الاستعلاء (على . . بصيرة) فالمهم أن تدعوا إلى الله . .

وأهم منه : أن تكون دعوتك على بصيرة تعينك على هداية الناس .

٥ ـ ولا بد من التركيز على ضرورة الإحاطة بمجريات الأمور فى المجتمع :

من أجل التعامل مع العاصى فى ضوء تقاليد هذا المجتمع :

فالمدعو . . جزء من مجتمعه . .

وعلينا أن ندرك اتجاهات الأمور فى هذا المجتمع . .

ولا نخاطبه بعيدا عنه

وفى قوله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ما يفيد مثالية هذه الأمة .

إلا أن هذه المثالية لا تتحقق إلا بثمنها من الخبرة والدراية . المؤديين إلى علاج حاسم لأمراض النفوس :

وفى موقف «جعفر» ﷺ مع النجاشى مصداق ما نقول :

لقد اختار له من الآيات . . ما كشف عن معدن الحق . .

وهى آيات سورة مريم يخـاطب بها مسيحيا . . فـبكى . . بل أسلم . . مؤكدا أن حوار الحضارات .

ـ لا تصادم الحضارات . . . ممكن . . . ما دام هناك منصفون . .

[السؤال] : أحيـانا يكون من المدعو تعبيـرا عن رغبته. وأحـيانا يكون من الداعى إثارة له : ومن الأول : [قيل : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟

قال : « الأنبياء ».

قيل ثم من ؟

قال : « الأمثل فالأمثل . . »

قال رجل : أى الناس أحق بحسن صحابتى ؟

ـ قال : « أمك » . .

ـ قال : ثم من ؟

ـ قال : « أمك »

ـ قال : ثم من ؟

ـ قال : « أمك »

ـ قال : ثم من

ـ قال: « أبوك »

السؤال من الداعى :

قال لأصحابه :

«أيكم مال وارثه أحب إليه ؟»

فقالوا : كلنا مالنا أحب الينا . .

قال : "إن مالك ما أنفقت ومال وارثك ما تركت"

بقيت كلها . . إلا الكتف

وأيضا :

« أتدرون من المفلس ؟ »

التعميم :

ما بال أقوام . .

فلا ينسب الذنب لفاعله مباشرة

عن ابن عمر رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

« لا عدوى . ولا طيرة ـ ولا هامة »

فقام إليه رجل فقال :

يا رسول الله ،

البعير يكون به الجرب . فتجرب به الإبل .

قال : **« ذلك القدر ، فمن أعدى الأول »** سنن ابن ماجه ج٢/ ١١٧١

فقد أبطل ﷺ التسلسل . . والدور فلو قلنا كل لاحق أعدى من السابق للزم التسلسل،ولو قلنا : كل جمل أُعدى وأعدى زميله لزم الدور . . وهو باطل . .

وإنما هو : القدر الأعلى .

تصحيح المفاهيم :

روى البيهقى عن النبى ﷺ :

"هل تدرون ما الشديد"؟

قلنا : الرجل يصرع الرجل !

قال : **«إن الشديد كل الشديد : الرجل الذى يملك نفسه عند الغضب»** .

« **أتدرون ما الرقوب ؟** »

قلنا : الرجل الذى لا يولد له !

قال : « **إن الرقوب : الرجل الذى له الولد .ولم يقدم منهم شيئا** » يعنى فى سبيل الله .

قال : « **أتدرون ما الصعلوك ؟** »

قلنا : الرجل الذى لا مال له ؟

قال : «**إن الصعلوك كل الصعلوك : الذى له المال لم يقدم شيئا ـ لله تعالى**» .

الإيمان خلق ؟

«**أتدرون ما المفلس**» :

قالوا : المفلس فينا من لا درهم ولا متاع .

فقال : « **إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة ـ وزكاة وصيام ويأتى وقد شتم هذا .**

وقذف هذا .

وأكل مال هذا .

وسفك دم هذا .

وضرب هذا».

مداراة القساة :

فى صحيح البخارى عن عروة بن الزبير : أن عائشة رضي الله عنها أخبرته ﷺ أنه استأذن على النبى ﷺ رجل فقال :

« **ائذنوا له ، فبئس ابن العشير** » أو « **بئس أخو العشيرة** » فلما دخل ألان له الكلام. وفى رواية :

فلما جلس تطلق النبى ﷺ فى وجهه .

وانبسط إليه فقلت : يا رسول الله .

قلت ما قلت . ثم ألنت له القول : فقال : « أى عائشة ،

إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ، أو ودعه الناس اتقاء فحشه .

منطق البصيرة :

روى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد ﷺ أنه قال :

مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل غيره : [هو أبو ذر]

ما رأيك فى هذا ؟

قال : رجل من أشراف الناس . . هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع .

قال : فسكت ﷺ .

ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : « ما رأيك فى هذا ؟ »

فقال : يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح .

وإن شفع ألا يشفع .

فقال ﷺ :

هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا !

[تعليق] :

يقولون : فى الزحام تختلط الملامح . . ولا تستبين من خلال النظرة المجردة . .

لكن الداعية الحكيم يستطيع أن ينفذ ببصيرته إلى الأعماق . . ومن وراء اللحم والشحم ليدرك الحقيقة بالبصيرة . . بعد أن عجز البصر عن إدراكها . .

ومن دروس الموقف هنا :

أنه مهما كانت نظافة الظاهر . . فإن هناك أمورا تدق على فهم الإنسان . .

ولما كان الحكم على المؤمن مهما ـ وكان الخطأ فى تقديره جسيما قد يجزئ السفهاء عليه . .

لما كان الأمر كـذلك كان لابد هذا الدرس العملى . . تحريرًا للنـفس من الانبهار بالمظاهر . . وما يترتب عليه من آثار . .

وهذا ما أراد ﷺ تدريب الصحـابة عليه . . ليصبح فى أيديهم المقـياس . . فرارا من ضغوط البيئة التى تفسد فيها ملكة التـمييز بين الخبيث والطيب فتختلط المعالم . . ويتوه الدليل . .

ولك أن تتصـور ضغط البيـئة هنا من قسـمهم أن هذا الفـتى حرى أن تكون لم الصدارة .

وفيما يتعلق بالفتى الفقير لم يقسموا . . كأن وضعه هذا المهين . . وضع ثابت لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى تأكيد .

الإجمال .. ثم التفصيل ..

وكان مما أعانهم على الوصول رغم وعورة الطريق . . طريقته ﷺ فى البلاغ . . ومنها :

التفصيل .. بعد الإجمال ..

أو التوضيح . . بعد الإبهام ؛ ليكون أوقع فى النفس . . وأقر فى العقل .

قال ﷺ :

« أكثر ما يدخل الناس النار : الأجوفان » .

قيل : وما الأجوفان ؟ قال :

« الفرج والفم » .

وقال ﷺ : **« أتدرون أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ . .**

تقوى الله وحسن الخلق » رواه أحمد .

ب ـ وعن أنس رضي الله عنه **قال : قال ﷺ يتبع الميت ثلاثة :**

أهله . وماله . وعمله .

فيرجع اثنان . ويبقى واحدا :

يرجع أهله وماله ..

ويبقى عمله « متفق عليه » .

ومقصود الحديث :

إيثار ما يبقى على ما يفنى .

كان رسول الله ﷺ حليما في معاملته، حكيما فى دعوته فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم، من غير أن يتفوه بباطل ولا أن يمارس سلوكا منحرفا وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ما ذكره ابن إسحاق رحمه الله فى سياق روايته عن دعوة النبي ﷺ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين : أن رسول الله ﷺ أتى قبيلة كلب في منازلهم - يعنى في الحج والمواسم الأخرى - إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم نفسه حتى أنه ليقول لهم : « يا بنى عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم » (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق به وذكر مثله (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه البيهقى من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : أن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل « **يا أبا الحكم هلم إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله** » ، قال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقا ما اتبعتك .

فانصرف رسول الله ﷺ . قال : وأقبل عليّ فقال : فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بني قصي قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا الندوة، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية، فقلنا :

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٩ .

نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي . والله لا أفعل .

ففي هذين الخبرين مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حكمة وتبصر . ولكن أبا جهل لم يكن منصفا .

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها، بينما ظلت دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه، ولو عقل وأدرك لعرف أن بإمكانه إنقاذ نفسه وقبيلته، والرفع من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ وأتباعه .

ومن حكمته ﷺ قوله : « **سبقك بها عكاشة** » ولم يقل : لست من أهلها . . تفاديا لإحراجه .

تعليم الصحابة :

وكان ﷺ :

يربى المعلمين من أصحابه ،ويزودهم بالنصائح ، ويضع لهم الخطة التى يسيرون عليها، ثم يرسلهم إلى أنحاء الجزيرة ،ليدعوا الناس إلى الإسلام، ويعلموهم الكتاب والحكمة ،ففى السنة العاشرة من الهجرة (٦٣١م) أرسل على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ثلاثمائة فارس إلى بنى مذحج من أهل اليمن، وقال له :«سر حتى تنزل بساحتهم ،فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة، ولا تبغ منهم غير ذلك ، ولأن يهدى بك الله رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك وإذا جلس إليك الخصمان ، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر» فسار حتى انتهى إليهم ولقى جموعهم ، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، ثم أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم ، وتابعه رؤساؤهم وأسلموا، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة أموالهم ، وأن يكونوا على من وراءهم من قومهم .

واتجاهه العام ، ﷺ ، فى توجيه أصحابه ، تمثل فى قوله : « **يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا** » .

دون تزمت أو إرهاق، وكان يتخول أصحابه بالموعظة، مخافة أن يسئمهم، أى

يطلب الحال التى يأنس فيها نشاطهم للموعظة فيعظهم ، ولا يكثر عليهم فيملوا . . . يلقى بالموعظة فى أسلوب من التمثيل والتصـوير، حتى يكون أبلغ فى الإفهام وأقوى فى التأثير ، يعطى كل من جلس إليـه نصيبا من وجهه ، وما استـصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه .

تابع الوقار :

ومع شدة تواضعهﷺ . .

كانت هيبته تغزو القلوب فتملأها . .

فلم يكن أحد يجرؤ على أن يحد النظر إليهﷺ .

واجبنا :

التواضع فى الطاعة .. فلا غرور :

نتواضع بتذكرنا معاصينا ، ثم نتواضع . . فى معاملة الناس .

وكانﷺ يستقبل الوفود. . استقبال العارف بطبيعة الوفد . .ومنزلته. . ومن ثم كان يتعامل معهم منطلقا من فكرته العامة عن الوفد :

كانت الوفود تنزل متفرقة :

وفد هنا . . ووفد هناك . .

إلا وفد ثقيف . . فـقد عومل معـاملة خاصة بقوم يراد إسـلامهم ليكونوا سندا للمسلمين :

ومن مظاهر تكريمه :

١ ـ كانﷺ يقوم على خدمة وفد ثقيف بنفسه . .

٢ ـ وقد يطول وقوفهﷺ فى الخدمة حتى يراوح بين قدميه .

٣ ـ وكان يحادثهم . .ويؤانسهم .

٤ ـ وقد تأخر عنهم يوما . . فاعتذر لهم !

٥ ـ لكن مجاملته لا تكون على حساب الحق أبدا . .

فقد طلبوا إليه إعفاءهم من الصلاة .. فرفض قائلا :

« لا خير فى دين ليس فيه صلاة ! »

ولما طلبوا الإبقاء على صنمهم رفض أيضاً !

فلا مساومة على العقيدة .

وكان وفد «بنى تميم» غشوما . . ومع ذلك جاملهم . . . فخرج إليهم . . لكن يبقى لثقيف منزلتهم المتميزة .

ومن تواضعه :

ما روى عن أسماء بنت أبى بكر : (صحيح ابن حبان/ ١٦/ ١٩٨/ رقم ٧٢٠٨)

قالت : لما دخل رسول الله المسجد الحرام ــ أى بعد الفتح ــ أتاه أبو بكر ﷺ بأبيه . . يقوده . .

فلما أتى . رآه رسول الله ﷺ قال :

«هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه».

قال أبو بكر : يارسول الله :

هو أحق أن يمش إليك من أن تمشى إليه .

قال :

فأجلسه بين يديه . . ثم مسح صدره . ثم قال له :

«أسلم» فأسلم !؟

ومن تواضع سيد الدعاة :

إلا إن أدعياء الزعامة :

إذا مدح غيرهم هب مذعورا

ولكن الزعامة الإلهية : عزها فى تواضعها :

ومثالها الأعظم هو :

محمد ﷺ .

والذى قال :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم . . »

ومع أنه عليه الصلاة والسلام وصل إلى العرش . . بينما كان يونس عليه السلام فى بطن الحوت ولكنه ﷺ يقول لأصحابه يوما :

« لا تفضلونى على يونس بن متى »

وعن عائشة رضي الله عنها :

سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته :

«اللهم حاسبنى حسابًا يسيرا»

فلما انصرف . قلت : يارسول الله :

ما الحساب اليسير ؟ قال :

« أن ينظر فى كتابه . .

ثم يتجاوز عنه :

من نوقش الحساب عذب»

الحب فى الله :

قال ﷺ لعلى :

« إنما أرضى لك ما أرضاه لنفسى ،

وأكره لك ما أكره لنفس » .

وعلى جسر من هذا الحب تعبر النصيحة لتصل إلى مكان الإقناع . .

لقد دخل تجار المسلمين آسيا . .

وكان معهم الحب . .

وكان فى قلوبهم الحب . .

الذى فتحوا به المقلوب هنا . . ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

خطاب الرسول إلى النجاشى :

أسلم : وهذا أمر

تسلم : وهو الترغيب .

فإن توليت : وهذا هو الترهيب .

يؤتك الله أجرك مرتين : ترغيب آخر

والرسالة من :

محمد : عبد الله ورسوله

وهو التواضع . . الذى يفتح الله تعالى به مغاليق القلوب . .

ثم هى رسالة يبغلها وتنتهى مهمته . . لتبدأ مهمة المدعو . . الذى يختار لنفسه ما يحلو . .

ولما شكا «خباب» رضي الله عنه للرسول ﷺ قائلا :

ألا تدعو لنا . .

ألا تستنصر لنا . .

لم يجبه ﷺ بخطبة وعظية .

ولكن بإبراز القدوة المؤكدة أن ما تشكو منه تحمله رجال من قبلك . . بل أقسى منه :

فقد كان المؤمن ينشر بالمنشار نصفين . . ما يصرفه عن دينه .

إن تاريخ الكفاح طويل . .

ولكنه لا يعرف المستحيل !

قال ﷺ «لمعاذ» رضي الله عنه لما أطال فى صلاته :

« أفتان أنت يا معاذ ؟ »

ولم يقل له : أنت فتان !

وفى منطقه ﷺ :

إيناس لمعاذ لما ناداه بالاسم :

يا معاذ . . .

ويعنى باستفهامه ﷺ :

أتريد أن تكون فتانًا ؟!!

وفى ذلك تنفير له من أن يعود لمثل ما حدث من التطويل .

من صور الوفاء :

ثابت بن قيس :

رضي الله عنه . . وقيمة الوفاء

تحققت نبوءة الرسول ﷺ . . واستشهد « ثابت بن قيس » رضي الله عنه مقبلا غير مدبر :

ثم جاء فى «الرؤيا» لصاحب له ، وقال له :

١ ـ درعى : سرقه فلان . . ووصفه فى مكان كذا ـ ووجد كذلك

٢ ـ وعلىّ دين فقل للخليفة يقضه عنى .

٣ ـ غلامى : حر لوجه الله .

ولقد نفذ الخليفة وصيته بحذافيرها .

وهى قيمة الوفاء . . وبعد الممات . . تحتفظ للعاملين بحقوقهم . .

وليت شعرى : إنها رسالة موجهة إلى المؤسسات التى يحال واحد منها إلى المعاش . . فتنقطع كل صلة به !

ذات يوم . . وعظ ﷺ موعظة وجلت منها القلوب . . .

وبكى الصحابة جميعا . . إلا رجلا واحدا فقد ضحك ؟!

فلما سئل عن سبب ضحكه قال :

إن الكريم إذا قدر عفا .

الفارق الهائل :

ولقد علق مسيلمة الكذاب قومه :

فأحل لهم الزنا . والخمر .

وأعفاهم من الصلاة :

ولكن رسولنا ﷺ كان «نذيراً»

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]

ومعنى ذلك :

أن متاعبه بدأت ببدء الدعوة ولو قلق المجتمع لرحّب به .

لقد أخذت الدعوة بمخانق القوم فعارضوه معارضة يغذيها حقد مقيم .

والأمة .. على الطريق :

كان لحسان فى حديث الإفك رأى لم يرض عائشة رضي الله عنها :

وقد سمعت ابن أختها « عروة بن الزبير » سمعته يسب « حسان » رضي الله عنه فقالت :

يا ابن أختى :

دعه . فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ . مسلم ٧/ ١٦٣

ومع أن زينب رضي الله عنها كانت فى طليعة من تغار منهن عائشة رضي الله عنها . . لكن ذلك لم يمنعها من إنصافها . والثناء عليها :

تقول رضي الله عنها :

هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فى المنزلة عند رسول الله ﷺ .

ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله عز وجل وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تصدق به وتقرب به . ماعدا سوره من حدة كانت فيها . تسرع منها الفيئة) «سنن النسائى/ ٧/ ٦٥ .

قال أنس : أقبل ﷺ المدينة فأضاء المدينة . .

فلما مات . . أظلم فيها كل شئ . .

فلما دفناه . . أنكرنا قلوبنا .

لقد كانت عظمته ﷺ مشتقة من انتصاره على نفسه :

ذلك بأن القائد العظيم هو : القادر على نفسه ؛ قبل أن يكون قادرا على غيره.. فليس من الصعب أن يجد القائد ألوف الجنود تحترمه وتحبه .

ولكن العظمة الحقيقية هى :

أن يكون هذا القائد قادرا على ضبط نفسه .

وحرمان نفسه من الراحة . . تماما كالجنود .

وحرمان نفسه من الطعام والشراب والنوم . .

تماما كالجنود . . أما دعوى التقشف فلا . . إلا بالقدوة .

لكن أدعياء الزعامة . . يحاولون السيطرة . . فيتم لهم ذلك . . . ولكن على القوالب لا على القلوب . .

وإلا . . فإن نفوسهم تتمرد عليهم إذ تزين لهم التضحية . . فإن نفوسهم تتمرد عليهم إذ تزين لهم التضحية بأممهم . . فى سبيل بقائهم . .

وما ظنك برجل يتسبب فى تخريب الديار . . فى سبيل بقائه هو .

التأسي برسول الله ﷺ :

قال طالب العلم للإمام مالك :

وددت أنا رأينا رسول الله ﷺ .

فقال له الإمام :

وماذا كنتم تفعلون ؟

قال الفتى :

نوقره . . ونتأدب بين يديه

فقال له الإمام :

فى استطاعتكم ذلك اليوم ...

ما بلغكم من أمره ونهيه . . فأطيعوا وانتهوا . .

وما أحب . . فأحبوا .

وما يكره . . فاكرهوه .

ولو فعلتم . . كنتم موقرين له مؤدبين !!

استأذن الرجل لدى الباب قائلا :

أألج ؟!!

فقال ﷺ لرجل :

« **اخرج إلى هذا .. وعلمه الاستئذان** » فسمعها الرجل . . فالتزم بأمره ﷺ وقبل أن يعلمه الرجل !

ومن فقة السنة .

فليبلغ الشاهد . .

تبليغ العلم فرض كفاية . حتى ينتشر .

ورب مبلّغ أوعى من سامع .

[وقد احتج العلماء بهذا لجواز رواية الفضلاء وغيرهم من الشيوخ الذين لا علم لهم ولا فقه . . إذا ضبط ما يحدّث به] .

من بلاغته ﷺ :

لما مر جماعة وهو مع صفية قال :

« هذه صفية بنت حيى »

ولم يقل : هذه زوجتى

لماذا ؟

لو قال ﷺ : هذه زوجتى لكان ينفى التهمة عنه هو شخصيا لكنه لما قال : صفية بنت حيى نفى التهمة عنها أيضا . . معه .

أ ـ إنها من بيت يمعنها شرفه من الخطأ .

ب ـ فإذا أضيف إلى ذلك كونها زوجته .

ـ وهذا ما فهمه الجمع . . فإن خاطر السوء غير وارد بالمرة .

ألا إن أصلها مانع لها .

فكيف وهى زوجة الرسول ؟!!

[الدعوة « بالكونيات »]

لأنها لغة التفاهم مع علمائهم :

ومنهم «كارليل» الذى كان يقول :

[أنا لا أهتم كثيرا بما جاء به القرآن من الصلوات والتحميد . .

ولكنى لا أملك نفسى حين أجده ينفذ إلى أسرار الكون . وبواطن الأمور فيقول للناس :

﴿ قُلِ انظُرُوا﴾ [يونس :١٠١]

يقول عز وجل :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت :٥٣]

وكان «الدينورى» مؤلف كتاب «النبات» يذهب إلى الأرض ليرى النبات على الطبيعة .

« سورة الفجر»

نموذج من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر : ١ ـ ٥] .

الآيات تتحدث عن عدد من الظواهر الفلكية التى اكتشفها العلم الحديث مثل دوران الأرض حول نفسها فيحدث الليل والنهار ودوران القمر حول الأرض فى دورة مدتها شهر ثم دوران الأرض حول الشمس دورة سنوية .

ويقول الدكتور أنور قدرى الباحث الفلكى فى بحثه : أقسم الله عز وجل بهذه المصطلحات الخمسة : الفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر لأن كلا منها تشكل آية من آيات الله فى هذا الكون المعجز فى دقة نظامه واستمرارية دورانه دون أدنى خطأ أو خلل فبدأ بالقسم بالفجر وهو انفجار الضوء بعد الظلام وكأنه حدث يتجدد بيننا، وقال : والليل إذا يسر أى مسار الليل وكأنه شئ متواصل بمعنى أن الظلام هو الأصل أو الشىء الغالب وأن النهار ما هو إلا سلخة من الليل «والليل نسلخ منه النهار» «يغشى الليل النهار» والكون كله ظلام دامس رغم أنه ملئ بملايين النجوم النجوم الكبيرة التى تكبر الشمس بعدة مرات ولكن جو الأرض فقط بما فيه من ذرات التراب وبخار الماء وبعض العناصر الأخرى تقوم بتشتيت الضوء الصادر من أشعة الشمس فتضئ جو الأرض (أقل من ٢٠٠ كم ارتفاعاً) .

والإعجاز هنا كما يقول الباحث : هو الربط بين الفجر والليل إذا يسر فالآيه تشير إلى دوران الأرض حول نفسها فيحدث الليل والنهار وهذه حقيقة فلكية أكدها القرآن من اكثر من ألف وأربعمائة سنة حيث قال تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر : ٥] إشارة إلى كروية الأرض ـ ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف : ٥٤] أى سريعا وهو تعبير يصف سرعة دوران الأرض حول نفسها ـ ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٣٧] أى حركة الأرض والشمس والقمر فى الفضاء .

أما الليالى العشر فالمقصود بها الشهر القمرى أى دوران القمر حول الأرض كل شهر لحديث رسول الله ﷺ « نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب إنما الشهر هكذا هكذا وهكذاً » وأشار بأصابعه العشر ثلاث مرات أى أن الشهر ثلاثون يومًا وهكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه العشرة ثلاث مرات أخفى فى المرة الثالثة أصبع الإبهام أى أن الشهر تسعة وعشرون يوما » بمعنى أن الشهر إما ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون يوما وأنسب تعبير عن الشهر أنه عشرات وقال تعالى : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير : ٤] والآيه تشير إلى حدوث الشهر الهجرى بدوران القمر حول الأرض دورة كاملة كل شهر . وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] .

ثم يأتى الكلام عن السنة الهجرية وهى تحدث فلكيا من دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة كل ١٢ دورة للقمر حول الأرض قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] «ومعلوم فلكيا أن هناك سنة هجرية بسيطه ٣٥٤ يوما وهى الشفع كما ذكرت الآية أى زوجية تقبل القسمة على اثنين. وهناك السنة الكبيسة وهى تتكون من ٣٥٥ يوما وهى السنة الوتر الزوجية أو الشفع «البسيطة» أولا ذلك لأنها تتكرر فى الكون أكثر من السنة الكبيسة بمعدل ٢ إلى ١ تقريبا . وإذا تأملنا هذه الآيات العظيمة نجد أنها برهان ساطع لكل صاحب عقل أن لهذا الكون خالق عظيم أبدع نظامه بدقة متناهية لا يستطيع أحد أن يوقفها أو يجريها قال : تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[القصص : ٧١ ، ٧٢] فحق لله تعالى أن يسأل : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ . أى صاحب عقل والجاحد الذى ينكر وجود الله وهذه آياته العظمى

التى تملأ الكون .

ويحلو لى أن أنقل هنا قصة طريفة للفلكى الشهير السير جيمس الأستاذ بجامعة كمبردج ، يرويها الدكتور عناية الله ، هو يقول :

« كانت ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩ م وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد على، فسلمت عليه مرة أخرى فسألنى : ماذا تريد منى؟ فقلت له أمرين ياسيدى! الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر! فابتسم «السير جيمس» وفتح شمسيته على الفور، فقلت له : وأما الأمر الآخر فهو: ما الذى يدفع رجلا ذاتع الصيت فى العالم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ أمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى، وعند ما وصلت إلى داره فى المساء، خرجت ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة بالضبط ،وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى ، وعندما دخلت عليه فى غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى، وكان البروفيسور منهمكاً فى أفكاره، وعندما شعر بوجودى ،سألنى، ماذا كان سؤالك ؟ودون أن ينتظر ردى، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها ومدارتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة حتى إننى شعرت بنفسى يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه ،ويداه ترتعدان من خشية الله وتوقف فجأة ، ثم بدأ يقول : يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى، وعندما أركع أمام الله وأقول له : «إنك لعظيم » ! أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء، وأشعر بسكينة وسعادة عظيمتين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟» .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفان فى عقلى، وقلت له : يا سيدى ! لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى،

وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس، فلـو سمحتم لى، لقرأتها عليكم فهز رأسه قائلا : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية :

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

فصرخ السـير جيمس قـائلا : ماذا قلت ؟ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ مـدهش ! وغريب وعـجيب جـداً !! إن الأمر الذى كـشفت عنه دراسـة ومشـاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى من الله .

ويستطرد السير جيمس قائلا : « لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بـنفسه، ولكن «الله» هو الذى أخـبره بهـذا السر . . مـدهش . . ! وغريب وعجيب جداً (٢) .

شهادة الواقع :

حين بحث علماء اليابان فى تأثير . . «الموسيقى» على الأسماك .

واستـخدامها فى الصـيد .. كان العرب قـد سبقـوهم إلي ذلك بما يزيد على أحد عشر قرنا من الزمان :

يقول الجاحظ تحت عنوان [تأثير الصوت] .

يقول :

بالأصوات ينوّمون الأطفال .

والدواب : تصر آذانها إذا غنى المكارى .

والإبل : تصر آذانها إذا حدا فى أثرها الحادى . وتزداد نشاطا . ثم تسرع .

ويجمع الصيادون السمك فى حظائرهم الـتى يتخذونها له : وذلك أنهم يضربون

---

(١) سورة فاطر : ٥٣ .

(٢) الإسلام يتحدى : ص١٥٢، ١٥٣ .

بعصى معهم ، ويعطعطون... فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار . مصغية إلى تلك الأصوات . حتى تدخل الحظيرة] قصة إسلام عالم يابانى .

يابانى .. يعشق تراب مصر

يقول أحمد كمال أوكاموتو وهو اسمه الجديد بعد إشهار إسلامه :

حضرت إلى الوطن العربى عام ١٩٧٠ وبالتحديد إلى سوريا وكنت موافد من وكالة التنمية الدولية اليابانية التابعة للحكومة اليابانية كخبير كاراتيه بوزارة الداخلية السورية وخلال ست سنوات قمت بالتدريب فى سوريا والعراق والأردن ولبنان وفلسطين ومصر وشاركت فى تأسيس اتحاد الكاراتيه فى هذه الدول .

* * *

* فى عام ١٩٧٦ انتقلت للعمل بمصر بناء على طلب الرئيس الراحل أنور السادات للعمل كخبير ومدرب للكاراتيه بالاتحاد المصرى العربى والأفريقى ونشر اللعبة فى أكثر من ٤٥ دولة عربية وأفريقية وحتى عام ١٩٨١ قمت بإنشاء مركز الرياضيات اليابانية بنادى الزهور بالتعاون مع جامعة كوكو شيكان بطوكيو . . ورغم توقف العمل بالمركز مع مجلس الإدارة السابق للنادى إلا أننى رفضت ترك مصر وكنت أنتقل بين الدول العربية والأفريقية بصفتى خبيرا أحاضر فى دورات المدربين ثم أعود إلى مصر . . والحمد لله عاد مركز الرياضات اليابانية بنادى الزهور للعمل من جديد بعد أن حصل النادى عى منحة يابانية قدرها نصف مليون دولار لتجديد المركز وأدواته وحضر توقيع العقد السفير اليابانى بالقاهرة .

* * *

* حصلت على شهادات وأوسمة كثيرة أثناء عملى بمنطقة الشرق الأوسط أهمها وأقربها إلى قلبى تكريم الرئيس حسنى مبارك الذى منحنى وسام الرياضة من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣ وهو ما يدفعنى الآن لتقديم الشكر له على ما يقدمه للرياضة والرياضيين فى مصر . .أيضاً شهادة تقدير من الرئيس الراحل أنور السادات ومن الرئيس الراحل حافظ الأسد فى سوريا ومن رئيس ليبيريا ومن اتحادات أفريقية وعربية

كثيرة كلها معلقة على جدران شقتى بالزمالك .

ويضيف قائلا : أشهرت إسلامى على يد الشيخ محمد متولى الشعراوى بالأزهر الشريف فى أوائل الثمانينيات وأتردد بين الحين والآخر على الأزهر وحصلت مؤخرا على نسخة من القرآن الكريم باللغة اليابانية .

وعن مشروعاته بالقاهرة قال : أعمل حاليا مديرا فنيا لمنتخبات الكاراتيه ويقوم المركز الثقافى اليابانى بالقاهرة بإنشاء مركزاً للرياضات اليابانية أسفل كوبرى عباس على غرار المركز الموجود بالزهور . . ويقوم اللواء منير ثابت رئيس اللجنة الأوليمبية المصرية ورئيس المركز الثقافى اليابانى بمجهود كبير لإنشاء هذا المركز بأسرع وقت وأشغل فى هذا المركز نائب الرئيس والمدير الفنى .

ويقول أحمد كمال أوكاموتو : بدأت أتقن اللغة العربية بالإضافة إلى أننى أجيد الإنجليزية واليابانية ولا أنكر أن سنوات عمرى التى قضيتها فى مصر ووصلت إلى ٣٠ عاما وراء تمسكى بالبقاء فى مصر حتى آخر يوم فى عمرى .

وعن أمنياته يقول : أتمنى أن أسافر إلى السعودية لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول ﷺ فقراءاتى الكثيرة عن الإسلام وراء شوقى الشديد لزيارة الأراضى المقدسة . . وهو ما أتمنى تحقيقه فى أقرب وقت .

وابدأ بمن تعول :

يقول عز وجل :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]

أشار «ابن حجر» هنا :

بأن عليه ﷺ أن ينذر أقرباءه . .

حتى لا يستجيب لعاطفة القرابة .

ليظل الولاء كله لله تعالى :

وهكذا الصالحون :

يرجون رحمته ويخافون عذابه

فلا يخافون . . ولا يرجون . . ولا يحبون إلا الله عز وجل . .

« أن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما . . »

إن القرابه . . تحتاج إلى مـودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة ورب أخ لك لم تلده أمك .

تفضيل بعض الصحابة على بعض :

أ ـ طوائف مفضّلة :

أهل بدر ـ أصحاب البيـعة ـ أهل أحد ـ أصحاب بيعـة الرضوان السابقون ، ممن صلى إلى القبلتين ـ الخلفاء الراشدون الأربعة .

ب ـ الصحابة كلهم عدول . . وتفضيل بعضـهم لا يخرج بالآخرين من العدالة لكنهم : تقاتلوا . وتأولوا .

١ ـ هم مجتهدون متأولون . . وكان لكلّ شبهة .

٢ ـ كانت القضايا متشابهة . . فدقت . . فنعذرت الرؤية الواحدة .

ولقد كانوا فى اجتهادهم واحدا من ثلاثة .

أ ـ قسم ظهر له أن الحق مع طرف . . ومن واجهه فهو باغ يجب قتاله .

ب ـ قسم ظهر له العكس .

جـ ـ وقسم توقف : لأن السبل اشتبـهت أمامه . . ولو ظهر الحق فى جانب . . لما جاز له أن يتوقف . . لأن نصرة المؤمن واجبة .

الآراء فى تفاضلهم :

١ ـ لاتفاضل : ونمسك عن ذلك .

٢ ـ هناك مفضلون : أبو بكر أولاً [بالإجماع] اتفاق أهل السنة .

وهناك من جعل بعده : عمر دين جعل : وبعضهم قدم «على» على عثمان حين (من أهل الكوفة) وبعضهم : فضل العباس .

علماء لنا فيهم أسوة :

نذكر هذا الموقف . . وهو بدروسه القيمة غنى عن التعليق :

قبل ربع قرن من الزمن، كان يتوبع على كرسى مكين من كراسى العلم النقي الصافي عند المئذنة الشمالية من بيت الله الحرام بمكة المكرمة، شيخ هرم، جار عليه الزمان كل الزمان، ونال منه الكبر مبلغه، واعتدى على ظهره نوائب الدهر، غير أن ذاكرته ظلت مستودعاً أميناً وسكناً أميناً لعشرات المتون في النحو والصرف واللغة، بل إن قريحته الحادة أهبطت جميع محاولات سطو الهرم وعدوان الشيخوخة على تلك المتون في ذاكرته ،وخاصة ألفية ابن مالك ! وإني أشهد الله ـ والشهادة للتاريخ .

بأن شيخنا لم يتخلف يوماً قط عن درسه الذي كان يلقيه على طلبة العلم بعد كل صلاة مغرب ! وكم كان حرصه شديداً على حماية ألسنة الطلبة الذين كانوا يؤمون درسه المليء بالحيوية والفاعلية التي كانت تطرد السنة، وتحمى الجفون كل الجفون من تسلط النوم وجنوده ! بل كان الطلبة يتنافسون في الجلوس بالقرب من شيخنا رغبة في سماع صوته المرهف، بيد أن أسلوب شيخنا العنيف ومنهجه القاسي في معاقبة من يلحن في إعراب بيت أو نثر أو شاهد، كان ذلك الأسلوب وذاك المنهج مصدر نفور وهرب لأولئكم الفتية الذين يأتون إلى درسه للمرة الأولى !

فكم من وجوه جديدة أتت إلى درس شيخنا ،ثم ذهبت ولم تعد! بل كم من فتية أعجبوا بقوة ذاكرة شيخنا ووقدتها وخاصة طريقته الفذة في قراءة أبيات ألفية ابن مالك !

جير، لم يكن شيخنا يخطئ أبداً في استذكار بيت من أبيات الألفية، ولكنه كم كان يخطئ في أسمائنا على الرغم من أننا كنا نلتقي به يومياً عدا يومي الخميس والجمعة، وكنا نعد هذين اليومين من أكثر الأيام وحشة ، إذ إننا كنا نحرم فيهما من لقيا شيخنا الذى أحببناه وأحببنا درسه كل الحب !

إيه ، ما أشد تعلق شيخنا بابن مالك ـ رحمهما الله ! بل ما أشد غرامه وولعه بكتاب سيبويه، ولكم كان أسفه وحزنه شديدين ومرين إذا تلعثم منا أحد فى استذكار

بيت لابن مالك !

وقد كانت طريقة الشيخ في درسه أن يقرأ على مسمعه أحد طلابه شرح ابن عقيل ،وكان في مجلس الشيخ رجل يمني مرح يقال له الشيخ يحيى، كانت مخارج الحروف عنده متميزة وراقية، فكان الشيخ يعجب بقراءته، غير أن فهمه لدرس الشيخ كان محدوداً جداً، بل كان كثير اللحن عندما يطلب منه الشيخ أن يعرب بيتاً أو نثراً، كما كان في مجلس الشيخ شاب مصرى ضخم الجثة، وكث اللحية، يقال له مصطفى، كان ملازماً للشيخ ومرافقاً له، وكان كذلك كثير الخطأ عند إعراب بيت أو نثر ! وكان منهج الشيخ إذا أخطأ أحد في إعراب بيت أو نثر ،يقول له بملء فيه وبصوت عال جد عال : رح واشرب زمزم !

ولم يكن يمضي يوم في درس الشيخ إلا ويكرر هذه العبارة، بل كان الشيخ يمسك برأسه عندما يلحن أحد من طلابه، ويظهر على ملامحه كأن ذلك الطالب ارتكب جريمة نكراء ! إنها جريمة اللحن ما أشدها جريمة، وما أفجعه في نظر شيخنا!

لقد كان شيخنا مؤمناً إيماناً حقيقياً بأن ماء زمرم يشفي المرء من اللحن، ويقوم لسانه، ويحمي من ترسبات اللحن وآفاته ، بل كان الشيخ يؤمن فى قرارة نفسه أن العلاج الأمثل للحن يكمن في أن يبدأ الدارس بشرب ماء زمرم قبل الدرس، وعند الدرس، وبعد الدرس، يا له من علاج رباني !

حقاً، فلئن تعددت مشارب الناس ومآربهم من شرب زمزم، فإن شيخنا كان يرى في ماء زمزم شفاء للحن، وشفاء للأخطاء الفاحشة في اللغة، وعلاجاً ناجعاً لانحراف اللسان عند النطق بلغة الضاد !

وهكذا مضت الأيام، وتوالت السنون،وانقضت الأعوام، وامتدت يد المنون إلى روح الشيخ قبل عقد من الزمن، فألحقته بربه ـ رحمه الله ـ وتفرقنا ـ نحن الطلبة ـ شذر مذر، وجارت علينا الأيام أيما جور، حيث لم نعد نعرف عن بعضنا شيئاً، بل لم يبق لنا من ذكريات تلك الأيام الخوالي سوى عبارات شيخنا الحزينة التي ترن في الأذن كلما تسلل لحن إلى ألسنتنا، أو اعتدى متحدث على فاعل فنصبه ،أو على

مفعول فرفعه، أو على مجرور فجزمه : رح واشرب زمزم !

كان شيخنا بشهادة التاريخ سيبويه عصره، وابن مالك زمانه، وابن هشام جيله،رحم الله الشيخ محمد الحبيب تمبكتي، رحمه واسعة وأسكنه فسيح جنانه، وجزاه عنا وعن لغة الضاد خير الجزاء !

وليس فى استطاعة بلاغة التصوير أو قوة التعبير أن تنقل الى الناس هذه الآلام كما يحس بها الإنسان !

كما أن تلاطم الأمواج لا يحكى ما فى جوف البحر من صخب وهياج !!

وليت شعرى ..

ولو كشف لنا الغطاء قبل أن نولد ورأينا ما سنلاقيه فى هذه الدنيا من عذاب وشحن . . لفضلنا أن نستمر بين طيات العدم . . حيث الراحة والسكون . . على أن نحيا فى هذه الأرض . . بين سعير الهموم وأكدار الزمان !!

ولكن لا حيلة فى الأمر . . ولابد أن تدفع الضريبة من دمنا . . ومالنا . . وأعصابنا . . على الأقل . . كلما ودعنا حبيبا إلى مثواه الأخير . . ويا لتصاريف القدر!!

يجلس معك صديقك . . تتجاذبان معا أطراف الحديث . . وتنفرج الأسارير عن ابتسامة الأمل . .

وما هى إلا لحظات .. حتى تتحرك يد القدر.. فيساقط أحدكما كالثمرة لقمة سائغة فى فم الموت !!

ثم تجلس وحدك . . سابحا فى أحلام اليقظة . . تتمثل أيامك الخوالى مع صديقك الراحل . . غير أن ابتسامتك مع صديقك الراحل . . تتحول فى ذكراه إلى دمعة . .

وحديثك معه سينقلب حينئذ إلى نشيج وبكاء . . ومرحك سيغدو آهات تشق الحناجر شقا . .

وهو نفس موقفى وأنا أذكر أخى الذى رحل !!

لقد درجت معه على دروب هذا البلد سنين عددا . .

كنا صبيانا نرتل القرآن سويا . . ثم نذهب إلى الحقل لنستمتع بالحياة . .

ونستذكر دروسنا فى ظلال الأشجار . .

وينقضى اليوم . . وتعود الشمس إلى مغربها . . فنعود نحن إلى ديارنا . .

ثم نفترق . . وفراقنا حينئذ كعقارب الساعة كما يقول «لا مرتين» . . تدور وتدور . . عقرب يسبق الآخر فى المسير . . والآخر ينتظر لقاءه . . بلا نواح . . وبلا أنين . .

أما اليوم . .

فأنا أنتظر محمدا . . ولكنه لا يعود . .

ويتلفت القرآن باحثا عن قارئه المؤمن فلا يجده . .

وتتلفت الشجرة التى أظلته علها تراه فلا تحس لأنفاسه دبيبا . .

وينصت النهر الجارى إلى صوت محمد فلا يسمع همسا !!

سكن الصوت . . وهدأت الحركة . . وتوقفت الأنفاس . . وانتهت قصة الحياة !!

أستغفر الله !!

هل انتهت قصة حياة محمد محمود ؟ . . لا . . إننى أتخيله الآن من وراء حجب الغيب وهو ينظر إلينا من برجه العالى ساخرا :

فيم اجتماعكمو هذا ؟؟ لتأبينى ؟؟

أنتم أحق بتأبين الورى دونى !!

أنا هنا فى الرحبات الوسيعة فى جنة الرضوان . . وأنتم لا زلتم سجناء هذا الجسد المسعور . .

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

رحمك الله يا محمد . .

لقد كنت أحد الرجال القلائل . . الذين رأوا المروءة . . بستانا من غير حارس . . وطائرا بلا عش . . وزهرة بلا ريح . . .

فكنت حارسها الذى رعاها . . وعشها الذى مد عليها رواقه . . وريحها الذى دخل كل قلب . . وملك كل عقل . .

وكان غيرك يدعو إلى الفضيلة. وهو عدو لها . . يدعو إلى الصدق . . وهو كذاب . .

ويشجع على الأمانة وهو خائن . .

ويمدح البذل . . وهو بخيل . . تماما كالمئذنة مستقيم الظاهر . . معوج الباطن!!

ولكنك فى دعوتك إلى الفضيلة . . كنت مثالا حيا . . يطبق مبادئها فى دنيا الناس عمليا . . ومن أجل ذلك لا زلت تحيا بيننا . . . وإن توارى عنا جسدك . .

وذلك . . لأن ما يخلفه الإنسان من ثمرات خلقية أبقى على الزمان من كل شىء . .

يذهب المال . . ويزول الجاه . . ويسقط السلطان . .

وتبقى الذكرى الطيبة فى فم الحياة عمرا ثانيا . . يحيا بها الإنسان وهو ثاو بين أطباق الثرى !!

وإذا كنت لم تعش على ظهر الأرض عشرات السنين . . فعزاؤنا أنك عشت حياة عريضة . .

إنها فعلا قصيرة الأمد . . بيد أنها مليئة بالمكرمات . . والمآثر . .

وكثيرون غيرك عاشوا مئات السنين فكانت حياتهم طويلة . . ولكنها حياة ضيقة . . ليس فيها من معانى الإنسانية ما يضفى عليها سمة الخلود . .

إننى أستعرض أمامى الآن . . إخوانك وصحابك . . وأسألهم واحدا واحدا . .

هل أساء محمد إليكم يوما ؟

وأكاد أسمع الجواب : لا . .

بل إنه عاش فينا كشجرة الصندل . . تعطر الفأس التى تريد قطعها . .

أو كشجرة جوز الهند . . تقذفها بالحجر . . فتقذفك بالثمر !!

سلام عليك يا أخى يا محمد . . سلام عليك وعلى أخيك سليمان . . لقد نزل عليك منذ قريب ضيفا . . ولا شك أنك التقيت به . . واستعدت معه ذكريات الماضى . .

فعليكم السلام جميعا . . ورضوان من الله أكبر . .

فنم يا محمد مطمئنا . . ونم يا سليمان آمنا . .

فلا زلنا على العهد أوفياء . . جنودا مخلصين . . لتثبيت دعائم الفضيلة التى عشتم بها واستشهدتم عليها . .

وإذا كان منجل الفلاح القاسى . . لم يمنع جذور البرسيم من النمو مرة أخرى . . وإذا كانت أشعة الشمس لا تمنع قطرات الندى من أن تبرق . . فإن الموت لا يمكن أن ينسينا أحبابنا وصحابنا أبدا . .

وسلام عليك يوم ولدت . . ويوم استشهدت . . ويوم تبعث حيا . .

* * *

الإسلام اليوم :

سؤال يفرض نفسه :

ما هو موقف المسلم من الإسلام ؟

يجيب العلماء بما ملخصه :

قبل الإجابة عن هذا السؤال . . لابد من معرفة موقف المسلم من الإسلام . . فى الأمس الدابر . . لأن ما نحن فيه الآن . . إنما هو حصيلة ما زرعناه بالأمس . .

وإذن.. فما هى الجذور التاريخية ؟

ثم . . ما هى ملامح المستقبل المشتق من هذا الماضى السحيق ؟

لقد شق الإسلام طريقه عبر أربع مراحل :

المرحلة الأولى :

دعا النبى ﷺ الناس : بلسانه.. ثم بعمله فكان مثالا للإنسان الكامل . والداعية المثالى ؛ الذى يقول ما يفعل :

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام :١٦١ ،١٦٢] وكان معه من البشر صفوة الصفوة الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . .

اتبعوه فى التزام صارم بكل ما جاء به من عند الله :

١ ـ أفرغوا حياتهم فى حقائق الشرع .

٢ ـ بل تحدوا كل قوى الأرض جميعا .

٣ ـ بل حاربوا هذه القوى الفاجرة . . مضحين فى سبيل الإسلام بأموالهم وأنفسهم . . إلى الحد الذى كانت عقيدة الإسلام أغلى حتى من الولد والوالد . . وكان الولد يقرأ من آيات القرآن الكريم لعن والده . . فينسى لحمة الدم ولا يكون ولاؤه إلا للقرآن واقرأ فى ذلك قوله عز وجل فى «الوليد» . . وكيف كان ولده خالد يقرؤها برضا وقبول :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر : ١١ ـ ١٩] وبهذه الصفوة الخالصة المخلصة أسس بهم ﷺ دولة فى المدينة :

من ملامحها :

١ ـ دولة فى حجم مدينة صغيرة .

٢ ـ لا يتجاوز تعدادها سبعة آلاف نسمة .

٣ ـ يراها الناس : جزيرة صغيرة . . فى بحر متلاطهم من الجاهلية العانية .

٤ ـ ومع ذلك : طبق فيها الإسلام عمليا .

٥ ـ ومع أن مساحتها ـ كما يقول العلماء ـ لم تكن تتجاوز بضعة أميال . .

٦ ـ إلا أنها سيطرت وفى ثمان سنوات . . استولت على مليون ميل مربع .

٧ ـ ولم يكن ذلك الاستيلاء بالسيف . . كما يزعم بعض المستشرقين . . بدليل ما أبينته الإحصائيات الدقيقة من أن قتلى الطرفين فى كل الغزوات لم يتجاوز ألفا وأربعمائة نفس تقريبا . .

[فأين هذا العدد الضيق مقارنا بضحايا الحروب الحديثة والتى كان القتلى فيها بالملايين] لقد صحا العالم الغافل الذاهل . . فرأى ما لم يكن يرى . . وسمع ما لم يكن يسمع . .

رأى ناسا من لحم ودم مثلهم . . ومع ذلك يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ورأى دولة وفيّة : ترد الجزية لأعدائها إذا عجزت عن حمايتهم . .

ثم سمعت رئيس الدولة يقول :

« أنا ابن امرأة من قريش . . كانت تأكل القديد » فكان مثلا أعلى فى التواضع :

إن التواضع من خصال المتقى

وبه التقىُّ إلى المعالى يرتقى

ثم اتسعت الدولة . . بفضل قائدها الذى ربى جنده على الولاء للحق وحده . . واطراح معانى التشفى والانتقام :

لقد كانوا كما وصفهم ربه :

﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

يذكرون الله : شخنا للقلب

ويتفكرون : شخنا للعقل

ومن ثم لم تكن لهم نهمة إلى نساء المقهورين حين يدخلون البلاد فاتحين :

فقد كانت نساء العدو تطل من الشرفات بالملابس الزاهية المغريه . .

فلم ينبهروا . . بل لم ينظروا . . ولم يفعلوا ما كان يفعله الأعداء ، حين ينتهكون الأعراض .

وإذ فإنها لم تكن فى حاجة إلى إلحاح فى الدعوة من حيث كان الفاتحون يدعون بأعمالهم . . فيفتحون القلوب . . قبل أن يفتحوا البلاد . .

ولهذا السبب بقيت آثارهم . . التى لا تذهب مع الأيام . .

وكل ما تشاهده اليوم من تقدم . . فإنه قبس من صيفائها . وأثر من آثارها .

المرحلة الثانية :

١ ـ انتشر الإسلام فى كل فجاج الأرض .

٢ ـ دخله كل من هب ودب .

٣ ـ ومن معانى ذلك :

نقص عدد المخلصين من المرحلة الأولى .

٤ ـ تعذر تربية هذا العدد الضخم .

٥ ـ تراجعت أمة الإسلام .

الأسباب :

١ ـ انقسمت الأمة على نفسها :

السياسيون فى ناحية ، ورجال الفكر والدين فى ناحية

٢ ـ وكان ذلك فتنة . .

٣ ـ لاسيما بعد تسلط السياسة على الحكم والدين .

٤ ـ وقد رفض العلماء ذلك .

٥ ـ واتسعت شقة الخلاف بين طرفى الأمة .

٦ ـ تخلى الحكام عن الدعوة . . إلى :

الحكم والضرائب واللذائذ .

٧ ـ توقف المد الإسلامي .

٨ ـ تفرد العلماء بالدعوة قولا وعملا . . ولم يساعدهم الحكام .

٩ ـ أهل الإحسان «أوقفوا» أملاكهم . .

ولكن !

ولكن الرجل كان يدخل فى الإسلام . . فماذا يحدث ؟

يتغير اسمه فقط ليكون اسما إسلاميا . . مع تعلم بعض الأحكام ، لكنه لم يتمكن من صوغ حياته كلها طبق مفاهيم الإسلام . . بسبب جور الحكام .

وكانوا معرضين للردة !

١٠ ـ ازدهرت العصبيات التى عجلت بانهيار بنى أمية .

١١ ـ استغل الملوك هذه العصبية إلى الحد الذى حمل «العباسيين» على الاستعانة بالفرس على بنى أمية . . تدعيما لحكمهم .

١٢ ـ تحكمت «الأنانية» فكان الولاء للنفس . وليس للمبادئ وبيعت الضمائر فى الأسواق .

المرحلة الثالثة :

وهى المرحلة التى هجم فيها علينا : الاستعمار . .

والذى كان من آثاره :

١ ـ تحكيم منهجه فى التربية . فكان من آثار ذلك . . جيل يدين بهذا المنهج . . وهو الجيل الذى يتبوأ أرقى المناصب . . فكان القرار قراره . .

والدليل هو : مركز مدرسى الإنجليزى . . والذى كان أهم من مدرسى العربى . .

وفى ضوء هذه الحماية الاستعمارية حدث ما يلى :

قامت حركات أطلقت على نفسها : حركة التحرير . . أو حركة التنوير . .

ولقد كان من مكرهم أن يرفعوا شعار الإسلام تمسحا به . . وخداعًا للناس . . حتى إن . . «مصطفى كامل» لما غذا اليونان تركيا . . حمل إليهم المصحف مبينا أن هذه معركته ؟!

يفعل هذا . . مع أنه مناوى بقيم هذا المصحف ؟!!

المرحلة الرابعة :

١ ـ اختيار قادة الأمم ممن يدينون للاستعمار . .

والذين كانوا يضربون الإسلام الذى قام باسمه زورا وبهتانا .

ولقد رق مكر الاستعمار حتى إنه كان يختار من الدول أنجب شبابها ليقوم بإعداده إعدادًا خاصا . . حتى إذا نُصّب بعد ذلك كان ولاؤه له .

٢ ـ كان هناك طبقة من العلماء المخلصين . .

ولكن الشعب لم يكن يأمنهم على تسيير دفة الحكم .

وتردد الناس يومئذ بين :

حكام أهل خبرة . . ولكن بلادين ، وعلماء أهل دين . . ولكن بلا خبرة ! !

وهو المعنى الذى أعلنه عمر ﷺ بقوله :

[اللهم إنى أشكو إليك قوة الفاجر وعجز الثقة]

حاشية

ومع هذا . . فهناك حقيقة يجب ألا تغيب عنا وهى : أن كل إنسان مهما كان مغرقا فى العصيان إلا ويتمنى عود المرحلة الأولى . .

وإذن . . فالرغبة فى الإصلاح موجودة . . بل وقوية . . ولكن أين السبيل ؟

إجمالا نقول :

لو خضعنا لمن يملك الكون سبحانه . . لخضع لنا هذا الكون . .

وتفضيلا لابد من دعاة . . يتسلحون بهذه الخصائص

فى الدعوة :

فى صحيح البخارى :

أن رسول الله ﷺ حادى الإبل بالترفق : فقال :

« رفقا بالقوارير »

لم يقل بالنساء :

لأن «القرارير» تشخص طبيعة الرقة . . والضعف . . فتحمل على الالتزام .

وفى فتح مكة ساء عمر ما أنشده «حسان» من شعر فى موقف الجد . فقال ﷺ :

«دعوه فإنه أشد عليهم من النبل» «سيرة ابن هشام» .

يقول عز وجل :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء : ٣٢]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ [الإسراء : ٣٤]

أما فى القتل فلم يقل ولا تقربوا

وإنما :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾

لأن الوازع قوى وهو القصاص

أما فى الأولين :

فيمكن ارتكاب الجريمة بلا وازع

فمنعوا من الاقتراب

لأن مجرد الوجود فى الحمى يوشك أن يقع ،

الهروب من ماضيك . . فلسوف يكون من ورائك دائما .

أما أنا فقرير العين :

بما أتفق على الفقراء إطعاما لهم .

أما أنت . . فتبذل مالك على مترفين :

بدل أن تشترى لهم خبزا . . تشترى تفاحا .

الصوت :

الذين اشترطوا جهارة الصوت . . هم الذين اشترطوا حلاوة جرسه .

المناصب

يقول ﷺ :

« من ولى رجلا وهو يعلم أن هناك من هو أقدر منه . . فقد برئت منه ذمة الله» .

ترى : هل نقتبس هذا الدرس من سيرته ﷺ لنستريح ونريح ؟؟

أم لا نزال بحاجة إلى كثير من النكسات حتى نعود إلى الحق المبين ؟

دخل رجلا من أبناء عم « أبى موسى الأشعرى » رضي الله عنه فقال أحدهما :

يارسول الله : أمرنا على بعض ما ولاك الله وقال الآخر مثل ذلك : فقال ﷺ:

« لا نولى هذا أحدا :

سأله ؟

ولا أحدا حرص عليه » .

هكذا وبصراحة . . ولم يشفع لهما أنهما ابنا عم رمز من رموز الدولة : أبى

موسى الأشعرى القائد العسكرى . . والرائد السياسى .

دعوة :

بنى الرجل الغنى مسجداً . .

ثم قال للإمام :

هل قبل الله ذلك منى ؟

فقال له الإمام :

أمهلنى للغد

فلما جاء الغد . . لفت نظره للراعى المأجور :

فلقد كان ـ وعند الغروب ـ كان يوجه كل مجموعة من الغنم إلى صاحبها .

ومعنى ذلك :

أن تسأل نفسك : ماذا قصدت بعملى هل كان فى سبيل الله ؟

هل نويت به وجه الله تعالى وحده . . فعاد إلى «صاحب» أم كان رئاء الناس؟؟!

لما عفا ﷺ عن «حاطب» رضى الله عنه :

نسى الصحابة ما حدث . . ولم يلاحقوه بما فعل . .

وإنما كانوا يقولوا عنه :

بدرىّ . . لا نقول عنه إلا خيرا

وهكذا بقيت المواهب ولم يقتلوها بالشماتة أو التعنت

فبقيت قوة مدخرة للإسلام

وليتنا الآن نفهم هذا الدرس . . فلا نعاتب ولا نغاضب . . وإنما : التغافر .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٧]

أحسن إليك ربك كرما منه تعالى وتفضلا .. فماذا حدث ؟!

لكنك أنت بنفسك . ونسيت كرمه سبحانه وإحسانه فعصيته ، إذا رأيت فعلك السيئ حسنا . . أو أنما الطفل المدلل الذى سينعفى عنه عَدا . .

ولقد نسيت أنه كريم بمعنى : لقد غرك إحسانه فتناسيت إعفاءه . .

ونسيت أيضا أن [التعبير «بالرب» مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان فى الإجرام وإذا ظهر لك معنى اللطف : ففى الباطن جبروت وقهر إنه يمهل . . ولا يهمل . . ولا يمكن للكمال المطلق أن يسوى بين المحسن والمسئ . . والمقام لشكر، عز وجل ففرارًا من عقابه : لأن من صفات الكريم أنه عزيز فهو : مع شدة حلمه . . شديد العقاب . .

مع ما كان ينبغى من التخلق بالحياء من المنعم المتفضل . .

وتذكر ما يقال فى دنيانا :

من كرم الرجل : سوء أدب غلمانه .

فهو : إذا قدر عفا . وإذا وعد وفى ، ولا يبالى كم أعطى ، ولا لمن أعطى .

اعتدلت النّسب :

فسوّاك

فاعتدل مزاجك

وكان عليك أن تفهم : أن القادر على التسوية قادر على التشويه .

كلا . . ردع عن الغرور . . فكل أقوالكم وأعمالكم مسجلة .

صفح :

أعرضت عن عتابه وتوبيخه

[وهو أبلغ من العفو . وقد يعفو الإنسان ـ ولا يصفح] [ترك عقوبة المستحق] .

العفو :

المحو . والإقحاء .

ومن البلاء :

ما لا أثر لأحد فيها

غفر : الستر : الصيانه من عسى العذاب

غافر الذنب :

تأميل الراجين . وتأنيس المذنبين

أهمية القدوة

كثيرة هى الخطب التى سمعتها تمجد قيمة الحرية .وجوهر الحق . .

ولكن موقفا واحدا يجسدهما أشد تأثيرا . .

ومن معاناة الداعية توقع العناد والجمود . . على ما قيل :

تقول «الإبرة» «للمصفاه» إنى فيك لثقبا ! ؟

ولكن بأى شىء نواجه هذا العناد . . وذلك الجحود ؟

بالعقل :

إن العقول الكبيرة : تفكر .

لكن العقول الصغيرة : تناقش !

غير بمعنى : سوى .

والجمع : أغيار

والأصل فيها : أنها صفة

والاستثناء عارض

فإن وصفت بهـا .أتبعتها إعراب ما قـبلها وإن استثنيت بها : أعربـتها بالاعراب

الذى يجب للاسم الواقع بعد إلا .

قال الغراء :

بعض بنى أسد . وقضاعة :

ينصبون غيرا إذا كان فى معنى «إلا»

سواء تم الكلام بعد أم لا . فيقولون :

ما جاءنى غيرك .

وما جاء فى أحد غيرك .

وقد يكون غير بمعنى «لا»

وعندئذ تنصب على الحال : مثل :

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [البقرة: ١٧٣] ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ [المائدة : ١] .

من بلاغة القرآن
فى كتابات المعاصرين

[وفى ظلال المراعاة لمثل هذه الملائمة بين الكلمات فى الآيات القرآنية، قال الشريف الرضى فى عرض الصورة البلاغية فى آية سورة «البقرة» ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ :

«المعنى أنهم استبدلوا الغى بالرشاد، والكفر بالإيمان ،فخسرت صفقتهم، ولم تربح تجارتهم، وإنما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم التجارة لما جاء فى أول الكلام بلفظ : «اشتروا» تأليفا لجواهر النظام ، وملاحمة بين أعضاء الكلام » (١) .

كما قال أيضا فى عرض الصورة البلاغية بقوله تعالى : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ [الكهف : ٣٣] : (الظلم هنا ليس على أصله فى اللغة ، ولا على عرفه فى الشريعة، لأنه فى اللغة اسم لوضع الشىء فى غير موضعه، وفى الشريعة، اسم للضرر المفعول) .

والمراد بقوله تعالى هنا : ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أى: « لم تمنع منه شيئا» وإنما حسن أنى يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمر تلك الجنة التى هى البستان، كالمستحق لمالكها، فإذا أخذه حقه على كماله وتمامه حسن يقال : أنها لم تظلم منه شيئا، أى لم تمنع منه مستحقا، فتكون فى حكم الظالم إذا أضرت بمالكها فى نقصان زرعها ، واختلاف ثمارها ، ومما يقوى ذلك، قوله سبحانه: ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ فلما جاء بلفظ « الإيتاء » والإعطاء ، حسن أن يجىء بلفظ الظلم» ومعناه هنا : المنع، فكأنه تعالى قال : « اعطيت ما استحق عليها ولم تمنع منه شيئا » .

ولم يفت علماؤنا القدامى فى دراستهم القرآنية، أن يعرضوا ما تيسر من نماذج الموازنة بين كلمة وكلمة، أو بين جملة وجملة .

---

(١) انظر «تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى ص١١٤ .

فى سياق كلام الله . وسياق كلام البشر نثراً أو شعراً ـ ولله المثل الأعلى ـ :

١ ـ فضياء الدين بن الأثير، فى الجزء الأول من «المثل السائر، وازن بين كلمة يؤذي، فى قول المتنى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

وبين هذه الكلمة نفسها فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

كما وازن بين مورد كلمة «القمل» فى قول الفرزدق :

من عزة احتجزت كليب عنده زريا كأنهم لديه القمل

وبين مورد هذه الكلمة نفسها ، فى قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

٢ ـ وأبو الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ فى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن) وازن بين المزاوجة فى قول عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وبين المزاوجة فى الآيتين الكريمتين : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤]

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] .

٣ ـ وابن سنان الخفاجى فى (سر الفصاحة) وازن بين المثل العربى المشهور : (القتل أنفى للقتل) والآية القرآنية الكريمة ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] فانتهت موازنته كما انتهت موازنة الرمانى [١] وأبى هلال العسكرى بينهما إلى أن الآية القرآنيه المعجزة :

(١) انظر «النكت فى إعجاز القرآن، للرمانى ص٧ وما بعدها ثم «الصناعتين» للعسكرى ص١٦٨ .

(١) أكثر فائدة .

(٢) وأوجز لفظا .

(٣) وأسلم من التكرار .

(٤) وأحسن تأليفا وبيانا . . !

وعفوا ومعذرة يارب العالمين، فما جمعنا فى هذا المقال بين ما تيسر من كلام الله، ثم ما تيسر من كلام البشر، إلا ونحن نردد مع الإمام أبى بكر الباقلانى المتوفى عام ٤٠٤ هـ فى كتابه « إعجاز القرآن » قوله ما نصه : (انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقلى فى ذلك ،فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وكلام رب العالمين) و«لا يستويا فى مثلا» .

ولا يستوى وحى من الله منزل وقافية فى العالمين شرود

وما أصدق وحى السماء ، فى سورة الإسراء :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] ؟

الغزالى حرب .

١ ـ منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] يعنى أنه حق واجب فى رقاب الناس، لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته .

٢ ـ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وفيه ضربان من التوكيد : أحدهما : أن الإبدال تثنية وتكرير، والثانى : أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، إبراد له فى صورتين مختلفتين .

٣ ـ ومنها قوله : ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان (ومن لم يحج) (تغليظا على تارك الحج).

٤ ـ ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان .

٥ ـ ومنها قوله : ﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

ولم يقل : (عنه) وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكانى أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه !!

﴿ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك : ١٩] متسائلا عن السر فى التعبير بالوصف فى ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ وبالمضارع فى ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ثم مجيبا بقوله : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها ، أما القبض فطاوى على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنها صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح .

ووقف الزمخشرى أيضا أمام آية من سورة «الحجرات» : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، قائلا : إن هذه الآية تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه وفى مبالغات ، شتى منها :

(١) الاستفهام الذى معناه الإنكار .

(٢) ومنها جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة .

(٣) ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم .

(٤) ومنها الإشعار بأن أحداً من الأخوين لا يحب ذلك .

(٥) ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا .

(٦) ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا . .

وفى مقام إثبات التوحيد لله عز وجل وهو جوهر الإسلام ولبابه ـ تبدأ الآيات القرآنية الكريمة الآتية : بعرض دعوى الشرك ، ثم تعقب عليها بأبلغ وأروع وآكد أسلوب يوحى بالخطر فى كل كلمة من كلماته المشعة المتفجرة :

«إداً» «يتفطرن» «تنشق» «تخر» «هدا» ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩١] .

وفى سبيل القضاء المبرم على هذه الدعوى الاشتراكية الخطيرة، يأتى القرآن الكريم فيما يأتى ـ بآيتين اثنتين، نفيضان بثمانية أساليب استفهامية متوالية جمعت بين التقرير الملزم ، والإنكار المفحم، ﴿ قُل ﴾ **﴿ من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ؟ من يخرج الحى من الميت ؟ ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقوم؟ فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟**

وإذا كانت هذه الآية الكريمة، أتت بفعلين مضارعين متواليين فى قوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فإن الآية الأخرى من سورة «الأنعام، قد أتت فى التعبير عن هذا المعنى نفسه باسم الفاعل وهو «فخرج»

ـ بعد مضارعه ـ وهو «يخرج» ـ قائلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

فلماذا كانت هذه المغايرة فى التعبير ؟

أجاب عن ذلك صاحب «بديع القرآن» بما خلاصته أن مجىء اسم الفاعل فى سورة «الأنعام» ـ وما جاء فى غيرها فى هذا المقام ـ هو الملائم لسياق الكلام الذى يقتضى فى هذه الآية من هذه الصورة، مجاورة اسم الفاعل «مخرج» لنظيره اسم الفاعل «فالق الحب» ومعلوم أن اسم الفاعل المضاف يدل على المضى، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال دون المضى، وهذه الآية مسوقة للتمدح بالقدرة الربانية المطلقة، واسم الفاعل هنا أنسب .

الكلام على «بعد»

عبد الله حميد غالب

أخبرنى أستاذى الفاضل ومن له الفضل بعد الله عليَّ فى دراستى للحصول على مرحلة الماجستير ـ د/ صالح جمال بدوى ـ حفظه الله ـ أن بعضهم ـ يرى أن استعمال (وبعد) خطأ وأنه لابد من الإتيان بأما ولما رجعت إلى كتب السلف والخلف وجدت أن هذا الأسلوب كثير الاستعمال فأحببت أن أنقل ما قيل فيه وخاصة ما علق على شرح قطر الندى لابن هشام رحمه الله .

١ ـ «وبعد» أتى بها تأسيًا به ﷺ ، فإنه كان يأتى بها فى خطبه ، وهى هنا مبنية على الضمِّ لحذف المضاف إليه ونية معناه ، أى بعدما تقدم من البسملة والحمدلة وغيرهما ، وأصلها مهما يكن من شىء بعد فحذفت مهما ويكن وأقيمت أمَّا مقامها، ثم حذفت أمَّا وعوضت عنها الواو ، فهى نائبة عن أمَّا المحذوفة تخفيفًا لكثرة الاستعمال ، واختصت الواو من بين حروف العطف بالنيابة عن أمَّا لأنها أم الباب ولأنها قد تستعمل للاستئناف كأمَّا .

(حاشية العلامة حسن العطار على شرح الأزهرية فى علم العربية للشيخ خالد الأزهرى ص).

٢ ـ قوله «وبعد» أصلها أمَّا بعد بدليل لزوم الفاء فى خبرها لتضمن أمَّا معنى الشرط ، وإنما لزمت الفاء بعدها ولم تلزم فى بقية أدوات الشرط ، لأنها لما ضعفت بالنيابة تقوت بذلك ، والأصل مهما يكن من شىء بعد ، والواو نائبة عن أمَّا وبها ألغز بعضهم فى قوله :

وما واو لها شرطٌ يليه جوابٌ قرنُه بالفاء حتما

وأجاب بعضهم :

هى الواو التى قرنت ببعد وأما أصلُها والأصلُ مهما

(حاشيـة العلامة الفاضل أحـمد بن أحمد السجـاى على شرح قطر الندى لابن هشام ص) .

٣ ـ قوله «أمـا بعد» الإتيان بهـا أولى من «وبعد» لأنها الواقـعة منه ﷺ ، ومن يأتى بالواو ويرى أن المدار على «بعد» فيخـتصر ، وهى فى بعض النسخ أيضًا ، وإن أردت الكلام النفيس فى «بعد» فعليك بما كتبناه على الأزهرية .

(حاشية العلامة الشـيخ محمد بن محمد بن أحمد المالكى الشهـير بالأمير الكبير ص).

٤ ـ وبعضهم يحذف أمَّا ويأتى بالواو مكانها فيقول «وبعد» فتكون الواو نائبة عن أمَّا وتكون الفاء فى جواب الواو .

واختُـلِفَ فى أول من نطق بها على ثمـانية أقـوال نظم بعضـهم منهـا خمسـة فى قوله:

جرى الخلف أمَّا بعد من كان باديًا ... بها خمس أقوال وداود أقرب

وكانت لـه فـصل الخـطاب وبـعده ... فقس فسحبان فكعب فيعرب

وقيل يعقوب وقيل أيوب ، وقيل آدم وهو أضعفها ، وجُمع بين هذه الأقوال بأن كَلاً أول من نطق بها بالنسبة لقبيلته فلا تعارض .

(حـاشيـة لقط الدرر بشرح متن نخـبة الفكـر تأليف عبـد الله بن حسين خـاطر السمين العدوى المالكى الأزهرى ص) .

٥ ـ وأقول بعـد هذا كله ، فكتب علمـاء السلف والخلف أكثـرها مبـدوءة بهذا التعبير ، بل بعضهم قد يحذف هذا كله ويستعمل اسم الإشارة كما فعل السيوطى فى ألفيتيه فى علم الحديث والنحو فهـو يقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

وهذه ألفية تحكى الدرر ... منظومة ضمنتها علم الأثر

ويقول فى النحو :

وهذه ألفية فيه حَوتْ أصوله ونفع طِلابِ نوت

وابن مالك فى كثير من منظوماته استعمل «وبعد» يقول فى نظم المقصور والممدود.

وبعد فإن القصر والمد من يحط بلفظيهما تستنبه النبهاء

وفى لامية الأفعال يقول :

وبعد فالفعل من يحكم تصرفه يحز من اللغة الأبواب والسبلا

والشاطبى يقول فى شاطبيته :

وبعد فحبل الله فينا كتابهة فجاهد به حبل العدا متحبلاً

وابن الجزرى استعملها كثيراً فى كتبه يقول فى الطيبة :

وبعد فالإنسان ليس يشرف إلا بما يحفظه ويعرف

ويقول فى الجزرية :

وبعد إن هذه مقدمة فيما على قارئه أن يعلمه

فالكلام فى أن استعمل «وبعد» خطأ ، يدل على عدم معرفة بعلم اللغة والإعراب والله المستعان .

* * *